# الفلسفة الشرقية

## بحوث تحليلية

بقلم الدكتور محمد غلاب
استاذ الفلسفة بكلية أصول الدين

— ٥ —

**الديانة المصرية — التوفيق بين الديانة والفلسفة**

أشرنا فى الكلمة السابقة إلى الخلاف الذى وقع بين المستمصرين حول التطور الدينى المصرى وهل هو وليد الفلسفة أو الفلسفة هى وليدته. ولما كنا قد تناولنا بهذه المناسبة الكلام على « رع » وتاسوعه، فقد وجب علينا إتماما للموضوع ان نشير إلى إلهة أخرى لا تقل عن السابقين أهمية، وهى « مآت » ابنة « رع » العظيمة

ليست هذه الإلهة من التاسوع، لأنها روحه كله، وبدونها لا يحيا أى واحد من الآلهة، لأنها هى: « الحقيقة والعقل والعدالة ». وهل يمكن أن يحيا أى إله بدون الحقيقة والعقل والعدالة؟ وتمتاز هذه الإلهة بأنها تجىء إلى الأرض يحملها فرعون ويتولى تطبيق صفاتها وإبرازها إلى حيز الوجود بطريقة عملية ويظل حارسها الأمين إلى أن يموت فتعود إلى السماء وتبقى فيها ريثما يصعد الملك الجديد على العرش فيوكل إليه أمر حملها وحراستها كسابقه. ولهذا كان كل فرعون يعنى بأن يكتب على آثاره أنه لم يدخر وسعا فى حماية الحقيقة والعدالة وفى إعلاء شأن العقل، لكى يثبت بهذا أنه قام بواجبه فى حمل « مآت » إلى الأرض ورعايتها خير قيام. وهاك ترجمة شىء مما يخاطب به فرعون « رع » كبير الآلهة فيقول: « ها أنذا أتيت نحوك، وذراعاى مجتمعتان لحمل مآت التى أنت موجود، لأنها موجودة؛ وهى موجودة، لأنك موجود؛ والتاسوع يناديك أنك أنت الإله العظيم الذى انتصرت منذ ملايين السنين. وأن مآت هى وحيدتك »

ولا شك فى أن لمرادفة مآت ابنة رع للحقيقة والعقل والعدالة أهمية فلسفية وأخلاقية عظيمة، إذ منذا الذى لا يبحث عن الحقيقة ولا يحترم العقل ولا يطبق العدالة مع علمه بأن هذه الأشياء الثلاثة هى مرادفة لابنة رع، وهى روح التاسوع المقدس كله. وإذن، فقد كانت هذه الأسطورة عاملا قويا فى تحفيز الهمم على البحث عن الحقيقة وعلى احترام العقل وعلى إجلال فضيلة العدالة كما سنذكر ذلك فيما بعد. وهل الفلسفة النظرية الإغريقية شىء آخر غير البحث عن الحقيقة؟ وهل الفلسفة العملية شىء غير تطبيق الفضائل التى أهمها — بعد الحكمة الناجمة عن احترام العقل المشروط فى الفلسفة المصرية — هى فضيلة العدالة التى استقامت بها كفتا ميزان السماء والأرض؟

**تعقل العامة**

كان كل ما أسلفناه لك من تطورات دينية ومن محاولات قوية فى التوفيق بين الدين والعقل هو تعقلات الخاصة والمستنيرين. أما العامة فكان لهم تعقل يخالف هذا مخالفة طفيفة حينا وشديدة حينا آخر، فهم لما وجدوا « أتوم » الممتزج عند الخاصة برع لا زوجة له ولم يستطيعوا أن يعقلوا أثره الذى سماه الخاصة « فعل التشمس » ونسبوا إليه نشوء الفراغ والهواء زعموا أنه ولد طفلين بطريقة لا ترضى عنها الأخلاق، وهما الهواء والفراغ، فتزوج ذكرهما أنثاهما فولدت له السماء والأرض، وهذان الأخيران أيضا قد تزاوجا بدورهما، ولكنهما التصقا بعضهما التصاقا محكما يحول بينهما وبين تحقق وجود الكائنات؛ فلما رأى الهواء ذلك اجتهد فى تفريقهما فسعى حتى مر من بينهما ففصلهما ورفع السماء إلى أعلى فوق ذراعيه، فغضب الزوجان من هذه الفرقة غضبا شديداً وما زالا يجتهدان فى إزالتها حتى الآن.

وما الجبال الشامخة التى تحاول الوصل بين الأرض والسماء إلا من نتائج هذا المجهود الذى يحاوله الزوجان. غير أن هذه الفرقة التى آلمت الزوجين إيلاما شديداً كانت سعيدة، لأنها سمحت للكائنات الحية بالوجود فوق الأرض كما سمحت للشمس بان تظهر من السماء، ولكن سكان « هيليو بوليس » الذين كانوا على وفاق فى هذه الأسطورة يبدأون بعد هذه النقطة يختلفون، فيذهب بعضهم إلى أن « نوت » الذى هو عند الفريق الأول أحد الزوجين المتفرقين إنما هو البقرة العظمى الخالدة التى تنسل كل يوم عجلا هو شمس ذلك اليوم؛ أما زوجها فهو رع نفسه، ولذلك أصبح رع فى نظر هذا

الفريق متزوجا وترك حياة العزوبة القاحلة . وهناك فريق ثالث تفرع من الفريق الثانى وذهب إلى أن هذه البقرة الخالدة هى « نون » التى هي أصل العناصر جميعها والتى منها نشأ رع نفسه

غير أنه ينبغى أن نلاحظ أن البقرة الخالدة التى هى عند بعض العامة زوجة رع وعند البعض الآخر منهم أمه ليست إحدى هذا البقر الذى يدب على الأرض ، وإنما هو تصوير لكائن عظيم كثير الخصوبة والانتاج لا أكثر ولا أقل . وهذا الفريق الأخير الذى يرى أن البقرة الخالدة هى أم رع يعتقد أنها واقفة فى الجو ، وأن رع يتنزه فى فلك من الذهب يسبح فوق ظهرها كل يوم من الشرق إلى الغرب على مرأى من الناس جميعاً . ولما أدركته الشيخوخة ، وكانت أعضاؤه من ذهب ، وعظامه من فضة ، فقد طمع البشر فى أن يستولوا عليه وأخذوا ينظرون اليه بعين الشراهة ، فشاكته منهم هذه الجرأة الوقحة وصمم على عقابهم ، ولكنه أبى أن يستبد بإصدار هذا العقاب فدعا مجلس الآلهة للانعقاد وعرض عليه هـذه القضية ، فأشارت عليه أمه بأن يبعث فيهم الإلهة « هاتور » تريق دماءهم وتقطع أعناقهم جزاء وفاقا لوقاحتهم وطمعهم فى الآلهة ؛ وقد كان ، فنزلت الإلهة هاتور مقتلة مدمرة حتى ملأت سطح الأرض دماء ، وكانت ستظل على هذه الحال حتى تبيد جميع العنصر البشرى لولا أن أخذت الإلهة الشفقة على الانسان من جديد ، فصمم على العفو عنه ، ولكنه لم يستطع اقناع « هاتور » الجبارة بالعدول عن خطتها التى كلفها بها مجلس الآلهة فأحضر لها عصيراً أحمر من بعض الفاكهة وأنبأها بأنه من دماء البشرية التى تحقد عليها فشربته مسرورة ولم تعد تميز شيئاً ، وبهذا وقف القتل والتدمير

وبعد أن كف رع حركة القتل عن بنى الانسان أحس بتقزز من استمراره فى الحكم مع هذه الشيخوخة فاعتزل السلطة آسفاً محزوناً على الشباب وقوته . وقد انتهزت « ايزيس » هذه الفرصة الذهبية فاتجهت إلى رع وأنبأته بانها تستطيع أن تعيد اليه الشباب على شرط أن يكشف لها عن اسمه الأعظم الذى لا يعرفه إلا هو . وما زالت به تغريه حتى حصلت على بغيتها التى كانت تعلم أنها تنيلها كل فرصة ، للتصرف فى الكون ثم مرت هذه السلطة بالتتابع إلى الآلهة « سو » ، « قب » ، « جيب » ، « أوزيريس » ، « هوروس » ، ففرعون ؛ وبهذا استطاع الشعب أن يؤول عقيدة الخاصة فى ألوهية فرعون ، ولعل القارىء لا تخفى عليه فطنة أولئك العامة الذين حينما رأوا الخاصة يؤلهون فرعون ، ابتدعوا لذلك مبررات لبقة تسير فى طريق منسق من رع إلى فرعون

## نظرية الفكر المصرية أو أصل المثل الأفلاطونية

كان المصريون يعتقدون أن الاسم هو كل شىء فى الكائن وأنه لا كائن بدون اسم ، أو أن الاسم هو الفارق الأوحد بين العدم والوجود . لهذا تقول الآية المصرية القديمة : « إن جميع الآلهة قد خرجوا من فم رع ، وأن رع هو الذى خلق كل عناصر الطبيعة » . ومعنى هذا أن « رع » هو الذى سمى الآلهة والعناصر ، وكان أول من نطق بأسمائها جميعاً . ومن حيث إنه كان إذ ذاك وحده ، فيكفى لايجاد الإله أو العنصر أن ينطق باسمه فيما بينه وبين نفسه أو أن يفكر فيه لأن نطق الاسم باللسان ليس إلا تعبيراً عن المسمى الموجود أو الفكرة التى يحتويها القلب والتى هى جوهر الأشياء جميعاً وبدونها لا يفوز موجود بالكينونة . وقد ذهب كهنة « هيليوبوليس » أو مدينة الشمس إلى أن الفكرة لا تمنح الكائن الوجود فحسب . بل إنها هى التى تحفظ عليه وجوده الدائم ، فإذا قدر على أى كائن ما أن يزول اسمه من فكرة الإله ، فإنه يهوى فى الحال إلى العدم المطلق . ولا أحسب أن من العسير على الباحث المتقصى أن يستكشف عناصر « المثل الأفلاطونية » واضحة جلية فى هذه الفلسفة المصرية التى سبقت أفلاطون بأكثر من ثلاثة آلاف سنة ، لأن أفلاطون يعتبر جميع هذه الكائنات المادية التى تدب على الأرض خيالات لا حقائق ، ولا يعترف بوجود حقيقى إلا لعالم « الفكر » المجرد عن علائق المادة وغواشى الطبيعة . أما هذا الوجود المشاهد بالمدركات الدنيا ، وهى الحواس ، فهو لا يزيد على أنه ظلال لعالم الحقيقة الذى لا تدركه إلا قوة البصيرة التى تخلص صاحبها من الشهوات الحيوانية ؛ وأما هذه الظلال المشاهدة ، فوجودها لا يحقق حقيقة الكائن لأنه وجود مؤقت فوق أنه خيالى . وإذاً ، فلست أظننى فى حاجة إلى إيضاح الرابط المتين الموجود بين نظرية أفلاطون

هذه وبين قول المصريين : « إن الفكرة لا تحقق للكائن وجوده فحسب ، بل هي وحدها التي تضمن له دوام هذا الوجود » أوقولهم : « إن جميع الموجودات قد خرجت من فم (رع) وإنه يكفي لإيجاد الكائن أن يجرى اسمه على لسان (رع) بعد أن مر مسماه بقلبه ، لأن اللسان ليس إلا معبراً عن الجنان »

أليس في تعبيرهم بان الفكرة وحدها كافية لتحقيق الوجود وخلوده تصريح واضح بان كل ما عدا الفكرة في الكائن لا يؤبه له ؟ ثم أليس في قولهم : إن الموجودات كلها خرجت من فم (رع) إيذان بأن المادة المحسة لا يستحق منها بالوجود إلا فكرتها التي خطرت لرع وان المحس منها لا قيمة له ؟

لا ريب أن في هذا الاكتشاف الذي أسجله اليوم على صفحات هذه المجلة ردًا جديداً على أرسطو و « سانتهاير » ومقلديهما وأذنابهم القائلين باستقلال الفلسفة اليونانية وعدم تأثرها بالفلسفات الشرقية ، كما أن فيه رداً بليغاً على ذلك الفريق الذي يحط من شأن العقلية الشرقية ، لأن مذهب « المثل » - وهو أسمى ما أنتجته العقلية الغربية - هو مشيد على أساس هذه النظرية المصرية ما في ذلك لبس ولا ارتياب . وكما أن الفكرة هي التي تمنح الوجود للحوادث وتحفظه عليها ، هي تحفظ الوجود الكامل كذلك على « رع » نفسه . ولهذا السبب اهتم بأن يخلق العالم ، لكي يظل اسمه حياً منبثاً في جميع عناصر الطبيعة ، مذكوراً على ألسنة أفراد المخلوقات حتى يضمن لنفسه وجوداً كاملا من كل الوجوه ، لأن تعقله هو لذاته لا يكفي في تحقيق الوجود الكامل إلا إذا خلا الكون من جميع ما سواه ؛ أما وفي الوجود كائنات أخرى ، فلا يتحقق له الوجود الأكمل إلا بتغلغل فكرته في كل قلب وجريان اسمه على كل لسان .

ومن هذا التغلغل نتج دور تفكيري عجيب ، وهو أن الإله ضروري للانسان بحيث لا يمكن وجوده إلا به ، وأن الانسان ضروري للإله بحيث لا يمكن استمرار وجوده الكامل إلا بتغلغل الإنسان إياه وتفكيره فيه ونطقه باسمه . ولا ريب أن هذه الدائرة قد أعلت من شأن الكهنة ، لأنهم هم أكثر الناس ذكراً لأسماء المعبودات ، وبالتالي هم أكثر الناس تأثيراً في احتفاظ الآلهة بوجودهم الكامل .

( يتبع ) محمد غلاب

# هكذا قال زرادشت

الفيلسوف الألماني فردريك نيتشه

ترجمة الأستاذ فليكس فارس

## الوغد

ما الحياة إلا ينبوع مسرة ، ولكن أيان شرب الوغد فهنا لك جدول مسموم . أحب كل ما هو نقي ، ولكنني لا أحتمل رؤية الأشداق تتثاءب معلنة ظمأ الأرجاس ، وقد جاؤا يسبرون أعماق البئر بأنظارهم فانعكست في قرارتها ابتسامتهم الشنعاء توجه سخريتها إلى .

لقد دنسوا المياه المقدسة بأرجاسهم ، وماتورعوا فدعوا أحلامهم القذرة سروراً فدسوا سمومهم حتى في البيان .

إن اللهب يتعالى مشمئزاً عند ما يعرضون قلوبهم المائعة عليه ، والروح نفسها تغلي وتتصاعد بخاراً عند ما يقترب الأوغاد من النار ، والأثمار نفسها يفسد طعمها وتتراخى عند ما يلمسونها بأيديهم ، وإذا ما حدجوا بانظارهم الأشجار المثمرة فإنها لتجف على أعراقها .

لكم من معرض عن الحياة لم ينفره منها سوى الوغد الزنيم ، فعافها إذ لم يشأ أن يقاسم هذا الوغد ما عليها من ماء ولهب وأثمار .

لكم من شارد لجأ إلى الصحراء متحملا السعار عائشاً بين الوحوش كيلا يجلس إلى بئر يدور بها حداة العيس بما عليهم من أقذار .

ولكم جاء الأرض من مكتسح أشبه بالبرد المتساقط من السحاب ولا أمنية له سوى ضرب قدمه في أشداق الأوغاد ليسد حناجرهم .

ما صعب علي الاعتقاد باحتياج الحياة إلى العداء والقتل والاستشهاد كما صعب علي التسليم بضرورة وجود الوغد الزنيم فيها .

أمن ضرورة الحياة هذه الينابيع المسممة والنيران المشبوبة